

عبد الرحمن الجابري

# يوسف وزليخا

نيرفيس

رؤية صوفية

ترجمتها إلى العربية  
عائشة عفت زكريا

٢٠٠٣

دار المنهل للطباعة والنشر - دمشق

عبد الرحمن الجابري

# يوسف وزليخا

تدقيق

## رؤية صوفية

ترجمتها إلى العربية  
عائشة زكريا

٢٠٠٣

دار المنهل للطباعة والنشر - دمشق

موافقة وزارة الإعلام  
الرقم: ٧٤٦٦١  
التاريخ: ٢٠٠٣/٧/١

مطبعة الصباح  
دمشق - هاتف: ٢٢٢١٥١٠

الإهداء

إلى حفيدي إبراهيم وأحمد

## التعرف بالكاتب والشاعر

عبد الرحمن الجامي

(٨١٧-٨٩٨ هـ)

(١٤١٤-١٤٩٢ م)

هو من مشاهير شعراء القرن التاسع الهجري وكتابهم في بلاد فارس، واسمه نور الدين عبد الرحمن ابن نظام الدين أحمد ابن شمس الدين الدشتي، نسبة إلى (دشت) محلة في أصفهان، نرح منها جده إلى (جام) فأسند إليه أمر القضاء والفتوى بها، وهو أيضاً من أولاد الإمام الشيباني صاحب الإمام الأعظم.

ولد شاعرنا في (جام) من أعمال مدينة (هراة) بخراسان في ٢٣ شعبان عام ٨١٧ هـ في أيام السلطان شاه رخ، ملك العراقيين (العراق وفارس)، وتخرج في العلوم على يد والده حتى صار أعجوبة زمانه. وقد أقبل على دراسة علوم الدين والتصوف منذ وعى الحياة، لذا اختار صحبة مشايخ الطريق ولازمهم، وهو صغير، منهم مولانا سعد الدين الكاشغري وحصل له أذواق وأحوال بمدة يسيرة فاق بها رفقاءه. كما نال بركة نظر الشيخ محمد بارسا، مرید الشيخ الجليل بهاء الدين شاه النقشبند ومرافقه وخليفته، وكذلك فخر الدين اللورستاني. ولقي بعد ذلك عدداً من المشايخ أهمهم وأشهرهم الشيخ ناصر الدين عبيد الله أحرار ولازمه، وكان يحبه ويرفع من شأنه ويسمع منه شروحات وافية من الفتوحات المكية، وحين يستشكل عليه شيئاً منها يفسرها له، وهو أستاذه في التصوف.

كان جامي يمتع بشخصية هادئة ونفس شفافة وخيال واسع، ذلك أنه سلك طريق علوم الروح على يد عدد من الشيوخ من مشايخ الطريق النقشبندية حتى صار من كبار مشايخها<sup>١</sup>.  
نال شرف مصاهرة الشيخ سعد الدين المذكور بالزواج من ابنته، ورزق منها بأربعة أطفال مات منهم ثلاثة في الطفولة، وبقي رابعهم يوسف ضياء الدين الذي توفي في ريعان الشباب، وكان مثل والده آية في الفضل والذكاء.

شهد له الشيخ عبید الله أحرار بأنه مجر من نور، ومع ذلك كان لا يقبل المشيخة والمريد لشدة لطفه وشفافية روحه، ويقول: لا أقدر على حمل ثقل المشيخة. ولكن كان له بعض المريدین منهم رضي الدين عبد الغفور اللاري الذي تخرج على يديه في سائر العلوم الظاهرة والباطنة، واشتغل معه في شرح فصوص الحکم للشيخ الأكبر.

حج جامي في عام ٨٧٧هـ فأقبلت عليه ملوك البلاد بالتحف والهدايا حتى قضى نفثه ثم توجه إلى الشام وتلقى الحديث عن الحديث القاضي محمد الحضيری الذي أجازته بالأسانيد.  
كان جامي شديد الحب لشيخه سعد الدين، ولذا بقي ملازماً له يستفيد من بحر علومه الواسعة في مجال الروح، ولما مات اتخذ مسكنه بجانب مقامه ولم يغادره إلا مرتين لتأدية فريضة الحج.  
كان جامي موضع تقدير رجال عصره نظراً لورعه وغازاة علمه وكثرة مؤلفاته الشعرية والنثرية على السواء. ومن مآثور أقواله: "الكهولة آخر الشباب، فما صرف به العبد أول شبابه يظهر أثره على وجهه

(١) انظر: الموسوعة الصوفية. الدكتور عبد المنعم الحفني. القاهرة: دار الرشد، ١٩٩٢م. ص ٩٨.

في آخره". وقد ذكر الشيخ علي بن حسين الصفي الواعظ (١٥٠٩هـ=١٥٠٣م) صاحب كتاب رشحات ماء عين الحياة، كثيراً من مناقبه.

عاصر جامي من سلاطين آل تيمور: شاه رخ (٨١٧-٨٥٠هـ)= (١٤١٤-١٤٤٦م) وميرزا أبا القاسم بابر (٨٥٦-٨٦١هـ)= (١٤٥٢-١٤٥٦م) وميرزا أبا سعيد كوركان (٨٦١-٨٧٣هـ) = (١٤٥٦-١٤٦٨م) والسلطان حسين باي قرا (٨٧٥-٨٩٩هـ) = (١٤٧٠-١٤٩٣م). وكان يسود البلاد في تلك الحقبة من تاريخها أمن واستقرار يشوبهما من آن لآخر فترات قصيرة من الفتن والاضطرابات، فساعد هذا الاستقرار على رواج العلوم الدينية والعقلية، وانتشرت العقائد الصوفية. وتعمقت الحياة الروحية في النفوس، وصار الكتاب يدعون إلى مكارم الأخلاق، بل كان هذا موضوعهم الرئيس. وقد بالغ تيمورلنك في احترام شيوخ التصوف ورجال الزوايا، لعلو همتهم واتصافهم بالورع والزهد وقوة التأثير في الناس. فكان يذهب إليهم للتبرك بهم ويزور أضرحتهم.

وكان تيمورلنك قد قام بغارات ثلاث على بلاد فارس في الأعوام ١٣٨٠-١٣٨٤-١٣٩٢م. تلك الغارات التي وحد فيها البلاد بالسيف، ثم ما لبثت أن تمزقت بعد ذلك حين مات ابنه شاه رخ عام ١٤٤٦م، بعد أن بذل جهد اليأس في الإبقاء على وحدتها. وبعدها تحولت البلاد إلى دويلات صغيرة وحصل فيها شين من الفوضى والحروب الأهلية. وظلت على تلك الحال إلى أن توحدت من جديد على يد الصفويين في بداية القرن السادس عشر للميلاد.

كان العصر الذي عاش فيه جامي غنياً بالإنتاج الفكري رغم ما به من اضطراب. وقد ترك أدباؤه ميراثاً ضخماً قيماً في التاريخ والتصوف والفلسفة والشعر، ما جعله موضع تقدير الحكام ورجال ذلك العصر.

ففي الشعر كتب ثلاثة دواوين من الشعر الوجداني، فاتحة الشيايب، واسطة العقد، وخاتمة الحياة.

وله سبع مثنويات أسماها الأكلیل السبعة على السبع الثوابت من مجموعة الصورة السماوية المعروفة بالدب الأكبر. وهي مجموعة متسلسلة من الحكايات التي يتخذها إطاراً لعرض وجهة نظره الفلسفية

والدينية والخلقية. وهي على التوالي: سلسلة الذهب: يعالج فيها مسائل فلسفية ودينية وخلقية. سلمان

وأسال: قصة حب صوفي يصف صراع النفس ضد الهوى وانتصارها. وهي رواية رمزية تناولها قبله

ابن سينا وابن طفيل وشرحها الطوسي. تحفة الأحرار: شعر تعليمي ذو صبغة خلقية وفلسفية، كتبها

في مدح شيخ الطريقة عبيد الله أحرار. سبحة الأبرار: مثنوية مشابهة لسابقتها في الأسلوب والمضمون،

وفيهما شيء من المدح للسلطان حسين باي قرا. يوسف وزليخا. القصة القرآنية المعروفة، موضوع كتابنا

هذا، وأول ترجمة تصدر باللغة العربية. ليلي والمجنون. وقد ترجمها إلى العربية الدكتور محمد غنيمي

هلال. خردنامه سكندري. وهي سلسلة محاورات فلسفية بين الإسكندر المقدوني وعلماء الإغريق.

أما مؤلفاته النثرية فهي كثيرة منها على شكل رسائل في تفسير بعض الآيات القرآنية أو شرح

لبعض الأحاديث النبوية، وبعضها في العروض والموسيقى. وهناك أربعة كتب هامة هي:

نفحات الأنس: كتاب موسوعي يتضمن سير رجال التصوف مع دراسة شاملة للتصوف وتاريخه، وهو

يشبه بذلك كتاب تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار. ولأهميته ترجم إلى عدد من اللغات، منها التركية

التي قام بها محمود بن عثمان بن علي اللامعي. وقد اهتم المستشرقون بهذا الكتاب وترجموه إلى لغاتهم،

منهم سلفستردو ساس. وله شواهد النبوة، واللوائح، اللذين ترجمهما المستشرق وينفيلد.



بهارستان: وهو مجموعة حكايات عجيبة وقصص عن الحيوان، هدفها تعليمي ومضمونها صوفي. وفيه خليط من الشعر والنثر على نمط غلسان (بستان الورد) لسعدي الشيرازي.<sup>١</sup> وقد تناوله بالترجمة عدد من المستشرقين إلى الألمانية والفرنسية.

توفي جامي في ١٧ من محرم سنة ٨٩٨ هـ=١٤٩٢م، ودفن بـ(هراة). وقد أُرُخ لوفاته بحساب الجُمَّل فكان كالتالي: (ومن دخله كان آمناً)<sup>٢</sup>.

٩٦      ٦٣٩      ٩٢

## التعريف بالكتاب

تناول جامي في هذا الكتاب القصة القرآنية المعروفة في سورة يوسف، وهذه وردت مفصلة في التوراة في سفر التكوين. ونظم الفردوسي يوسف وزليخا في قصة شعرية موزونة على البحر المتقارب نفسه الذي استخدمه في الشاهنامه، كما نظم هذه القصة شعراً عدد من الشعراء منهم: شهاب الدين عمق البخاري المتوفى سنة ٥٤٣-٤٤=١١٤٩-٥٠.

رکن الدین مسعود الهروي، الذي استشهد في زحف جنكيز خان قبل أن يتمها وذلك في أوائل القرن السابع الهجري. وبعدها قام جامي بنظمها وأهداها إلى السلطان حسين ميرزا حاكم خراسان. ثم

(١) انظر: القصة في الأدب الفارسي. الدكتور أمين عبد المجيد بدوي. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر،

١٩٨١م. ص ٤١٦.

(٢) انظر: عبد المجيد بن محمد الحاني. الكواكب الدرية على الحدائق الوردية. تحقيق عفة زكرا. دمشق: مطبعة الصباح ١٩٩٨م، ص

محمود بيك سالم وهو من حاشية الشاه طهما سب الصفوي عام ٩٣٠-٩٨٤هـ = ١٥٢٤-١٥٧٦م. ثم فرخ حسين ناظم الهروي الذي بدأها سنة ١٠٥٨ وأتمها في ١٠٧٢هـ = ١٦٤٨-١٦٦١م. وبعده الهروي لطف علي بيك آذر عام ١١٧٦هـ = ١٧٦٢م. وكذلك الشاعر شوكت حاكم شيراز من قبل الشاه فتح علي. وقد ذكر الفردوسي في منظومته الشعرية ليوسف وزليخا أنه لم يكن أول ناظم في موضوعها قبله هناك أبو المؤيد البلخي وكذلك البختياري سبقاه إلى نظمها. لكن يبدو أن هاتين المنظومتين فقدتا فلم يصلنا منهما شيء.

أضفى جامي على قصة يوسف وزليخا لوناً صوفياً وخيالاً عرفانياً فبدت وكأنها قصة جديدة. وقد وردت القصة في ثمانية وخمسين فصلاً اضطررنا إلى الالتزام بترتيب عدد هذه الفصول على كثرتها وقصرها، بالإضافة إلى أن هذه الترجمة ثرية ولا بد أنها تفقد بذلك كثيراً من رونقها وفتحها الشعرية. ومن الملاحظ أن جامي بدأ قصته المنظومة من حيث بدئت في سورة يوسف وتمشى مع سياقها. لكنه أضاف أموراً كثيرة إليها، منها قصة الفتاة (بازغة)، ومنها توسعه في قصة زليخا التي لم يرد اسمها أصلاً في القرآن الكريم ولا حتى في التوراة. كما أضاف قصة الصور على جدران بيت زليخا، وزواج يوسف من زليخا ثم وفاته وبعدها موت زليخا.

ومع ذلك فإن جامي لم يلتزم بكل ما جاء في سورة يوسف، إذ لم يذكر في قصته كيف اجتمع يوسف عليه السلام بإخوته وعرفهم حين صار عزيز مصر، وكيف تحقق حلمه حين رفع أبويه على العرش وخرؤا له سجداً، مع أن هذه الحادثة هامة جداً في القصة، وتشكل نقطة تحول كبيرة في حياة سيدنا يوسف عليه السلام والتي أبرزت ازدياد إيمانه وتضرعه لخالقه: كما ورد في القرآن الكريم: ﴿رب قد آتيتني من

الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً  
والحقيقي بالصالحين» .

على أن براعة جامي كانت واضحة في عاطفته الصادقة وخياله الواسع وبيانه الساحر وقدرته  
على تصوير كثير من النوازع البشرية وحقائق الحياة في النهاية التي انتهت بها القصة التي تثير الدموع من  
العيون. وفي حقيقة الأمر، فإن جامي وهو أحد مشايخ الطريق الكبار، يعطي دروساً في العشق الصوفي  
المتجرد لله سبحانه، عن طريق شخصياته، وهذا ما اتجه إليه جميع الشعراء الفرس وكتابهم من أمثال  
الشيخ جلال الدين الرومي وفريد الدين العطار النيسابوري ونظامي الكنجوي وغيرهم كثير، لأن التصوف  
مبني على العشق أولاً وأخيراً. والفضل لجامي في صبغ الموضوع بصبغة جديدة، وقد ظهر فيه طابعه  
الشخصي، وكان فيه مجدداً أكثر منه مقلداً. إذ أنه مفكر يحاول أن ينفذ من وراء الحوادث، فبازغة  
وزليخا وجدتا في الحب الإنساني طريقاً إلى العشق الإلهي، حين يشتد الوله بالحب فيتخذ من محبوبه  
رمزاً لغاية عظمى للهيام بالجمال الأزلي.

تشكل الأحلام حيزاً كبيراً في قصة جامي، فمن حلم يوسف، وهو صغير إلى حلم زليخا  
الشابة بيوسف وجنونها، إلى صاحبي السجن الذين رأيا حلمين مختلفين أولهما لهما يوسف عليه السلام، ثم  
حلم ملك مصر واستغرابه لمعرفة معنى رؤياه. وهذا كله ما يدل على اهتمام الناس بالرؤيا الصالحة منذ  
قديم الزمان. وقد أورد القرآن الكريم ذكر هذه الرؤى في قوله تعالى، وقد منّ على يوسف عليه السلام:  
﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ يعني به علم الرؤيا، وهو العلم الأول منذ ابتداء  
العالم، لم ينزل عليه الأنبياء والرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، يأخذون به ويعملون عليه حتى نبوءاتهم

بالرؤيا وحي من الله عز وجل إليهم في المنام. وقال تعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ قال بعض المفسرين: يعني الرؤيا الصالحة يراها الإنسان أو ترى له في الدنيا، وفي الآخرة رؤية الله تعالى. وقال رسول الله ﷺ [من لم يؤمن بالرؤيا الصالحة لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر]. وقالت عائشة، رضي الله عنها: "أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح".<sup>٤</sup>

بلغ الشاعر جامي قمة التصوير الفني في منظومته القصصية هذه لشخصيته، لكننا يمكن أن نصرح:

"أنهما بعدتا قليلاً عما نعرفه من القرآن الكريم، بل وضحت صبغتهما الصوفية. إذ أن يوسف يعتقد، كما يعتقد سائر المتصوفة، أن التأمل في الجمال يقود إلى الله سبحانه ذي الجمال المطلق. فهو ينصح الأميرة المصرية بازغة، حين أتت إليه مدلهة مجبه، قائلاً: "إن الجمال في الخلق ما هو إلا انعكاس عابر لا يطول بقاءه، كخضارة الورد. فإذا أردت الخلود فتوجهي إلى أصل الأشياء!". وقد ترهنت الفتاة على أثر سماعها هذا الكلام وزهدت في خير الدنيا. بينما كانت زليخا في بداية أمرها لا تدرك ما أدركه بازغة لأنها كانت عبدة للمظاهر.

وزليخا ترى في حلمها يوسف عليه السلام، قبل أن تعرفه ويبدو لها في حلمها أنه سيكون زوجها المقبل. ثم تعرفه بعد ذلك وهو أمين مخازن الملك، وكانت مقيمة على حبها لفتى حلمها. وستظل عذراء مع زوجها طوال حياته . . . وتستمر العاطفة قوية لديها حتى تستهلكها وتضيع حياتها في

(٤) انظر: تعطير الأنام في تعبير المنام. الشيخ عبد الغني النابلسي. القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٣٨٤هـ. ص ٣.

الصبر والانتظار، كما تبقى ليوسف عليه السلام نظراته الصوفية، حتى يسلم بتولّه زليخا به، وأنها - وقد هرمت وعميت - تقيم في كوخ من اليراع تكفي بسماع وقع سنابك موكب يوسف عليه السلام على الطريق، فيدعو الله لها أن يرد شبابها وبصرها . ويستجيب المولى له، ثم لا يلبث بعد زواجه منها أن يمل نعيم هذه الدنيا، فيسأل الله العلي أن يعجل برحيله إلى دار النعيم، فموت زليخا حزناً عقب وفاته<sup>٥</sup> .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أن شاعرنا لم يكن من زهاد التكايا والخواق، بل واضح أنه خاض معترك الحياة من وصفه لحياة الناس المترفة والزخارف والجواهر والحلي والحلل، وحياة القصور وتنسيق الحدائق، والعلاقات العاطفية بين الناس عن طرق مربية زليخا، أو والدها أو وصيفات زليخا، أو في وصفه لجمال زليخا الأخاذ وقتة يوسف عليه السلام وسحره كالشمع الذي يذيب القلوب . والحوار الغزلي الذي دار بين البطلين كان مشوباً بكثير من التحليل النفسي، وكذلك فنون الإغراء الجنسي التي قامت بها وصيفات زليخا، والصمود العجيب الذي بدا من يوسف عليه السلام أمام كل هذا السلوك الذي سجله الشاعر، وكبحه لأي نزعة تحيد به عن مسلك الأنبياء . وكلنا يعلم أن المتصوفة قام مذهبهم على كبح جماح النفس الأمارة بالسوء، وتحذوا عن النفس اللوامة والنفس الملهمة والمطمئنة والراضية والمرضية، وأخيراً النفس الكاملة، وهي التي يتطلعون دائماً إلى أن يرتقوا إليها لأن صاحبها كمن يملك مرآة تعكس النور الإلهي في قلبه .

وهذه القصة تعكس حضارة تلك الأيام وفكر أهلها وسلوكهم وتطلعهم في النهاية إلى ما هو

أسمى من كل هذا، الجمال الإلهي الذي ما بعده من جمال!

(٥) انظر: الأدب المقارن. الدكتور محمد غنيمي هلال. القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٩٧٧م. ص ٣٠٢.

إن هذه القصة ملحمة عاطفية تدور داخل النفس وعبرة وعظة لكل بصير! ويجدر بنا أن نختم قولنا بأن من كتب هذه القصة هو أحد العشاق الكبار، ولا يعرف الصباة إلا من يعانها . لذلك جاءت صادقة مؤثرة فقد كُتبت بدماء القلب!





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلهي دع برعم الأمل يتفتح من حدائق الأبدية لكي يبارك حديقتي بابتسامة عذبة ويرسل عبر  
شذاها عرْفَهُ إلى أن تطرب وتنشي .

وفي مقام انكساري المستمر دعني أتذكر أعامك الجلى التي أدمتها عليّ حتى تصير كل خطرة في قلبي  
شكراً وامتناناً لك، وكل حركة من لساني لا تكون إلا تسييحاً بحمدك .

لقد جعلت قلبي خزانةً لجواهر الكلام لكي ينطق بها لساني، فافتح قربة مسك عبقرتي وانشر  
عبيرها من الشرق إلى الغرب . وامتح نايب الذي يكتب هذه القصة حلاوة السكر! وضمتخ بالعنبر هذا  
الكتاب الذي أبدأ به الآن! وهذا الموضوع يجب أن يصل إلى تمامه فإذا فصل عن عنوانه لا يبقى لنا  
شيء من هذه القصة . وهنا في هذه الحانة حيث نسمع عدداً من القصص الجميل مغنى، لم أكن قادراً  
على الإصغاء إلى شئٍ منه لأن أصداء هذه الأنشودة تتردد على سمعي وتملكني . لقد مثل كثير من  
أصدقائي بعد أن شربوا كهائهم وانصرفوا، دون أن يتركوا شيئاً وراءهم سوى كؤوسهم الفارغة، ولم أجد  
أحداً منهم جديراً بالاحتفال بهذا الشراب الصرف فيمسك بكأس هذه الخمرة في يده . إنهم لم يدعوا لنا  
إناءً ولا كأساً ولا ساقياً، أجل لم يبق لنا الآن سوى غصص الألم . ولكن تشجع يا جامي ! ليكن  
اتشاؤك مختلفاً ! سواء كنت تحتسي المسكر أو الخمر الصراح، هيا قدم شرابك . . . !

(١) واضح أن الشاعر يشبه أفايص العشق بالخمرة في الكأس التي مثل منها أصحابه واكتفوا، بينما هو يملك كأساً فيها شراب صرف .  
ليس جديراً إلا بن يعرف قيمتها، فبقي وحده متألماً . ولا شك أن القرآن الكريم ذكر الكأس والشراب الروحي في الجنة، وأية كأس وأي  
شراب!



ما أقدر الخالق العظيم الأبدي أحكم الحاكمين على أن يهب الضعفاء قوة، وهم لا يملكون من دونها لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً! إنه المعين وإنه موصل المرء إلى ما يصبو إليه، وهو الخافض الرافع، والغفور أيضاً لكل من تاب حين بلغ من الكبر عتياً بعد أن أمضى حياته في النفاق، وصار منتشياً بكأس حبه. إنه مع هؤلاء الذين يكدحون طيلة نهارهم وليلهم. ما أجمل طعم الشكر في فم هؤلاء الذين يسبحون مجده! نحن لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، إنه هو واهب الوجود والعدم. إنه لا شبيه له ولا مكان ولا زمان. إنه موجود بكل مكان، تقف العقول حائرة عن إدراك كنهه.

يا نفسي اللعوب حتماً تبقين تلعبين بالطين في مقر المظاهر التي لا طائل وراءها؟ أنت الوراق ذات المنشأ الرفيع<sup>٢</sup>، درجت في عش غير عش هذا العالم الوضيع، فلماذا هجرت بيتك لتصبحي هكذا كبومة وضيفة تساكن الخرائب؟

حتماً تسلمين هذه المملكة إلى الشكوك، وتقولين كما قال أبوك إبراهيم الخليل، حينما رأى أول ما رأى كل نجمة جديدة «هذا ربي»؟ بل كوني مثله حين قرع باب اليقين وقال: «لا أحب الأفلين» دعي عنك الضلال والشك واحميه من قلبك وأديري وجهك إلى الواحد الأحد!

إن في كل ذرة من ذرات الكون طريقاً تقود إليه وبرهان على وجوده. وإذا كان هناك من فكرة محفورة في القلب عن أي وجود محسوس فلأن كل صورة لا بد لها من مصور، ومن الفعل تعرف إلى

<sup>٢</sup> إشارة إلى بيت ابن سينا من قصيدة الوراق:

الفاعل . وفي اللحظة الأخيرة التي لا مفر لك منها ، وأنت وحيد على فراش الموت توشك أن تلفظ فيها النفس الأخير فإن مصيرك بيديه وحده سبحانه . لذا اجعله دائماً ملاذك الوحيد ، واطلب منه جنة الخلد جزاءً وثواباً على كدحك إليه . إلهي سبحانه ! لقد كنا في غفلة عن كلا الوجود والعدم المخيف . فخلقتنا لنجتاز مرحلة العدم إلى الوجود ثم سجنتنا في قفص الطين ، ثم نقلتنا من الضعف إلى القوة . وأخيراً أقتدنا من الجهل ومنحت نفوسنا المعرفة .

لم نكن نميز الخير من الشر لأننا تعرض للذنب مرة من خلال إسرافنا ومرة من خلال تقصيرنا . لم نتمس على السبيل التي أوصيتنا باتباعها ، بل سلكنا سبيل المحرمات . ومع ذلك لم تسحب عنا فضلك ومعروفك ولم تحجب عنا نور هدايتك . ولكن ما جدوى ذلك إذا كنا لا نقوم بأدنى جهد من جانبنا لكي نتألنا هذه الرحمة ؟

إننا لنصرخ من شدة اليأس والقنوط بعد أن استسلمنا للكسل . فامنحنا يا إلهي الإرادة القوية والعزيمة الصادقة لكي نجتهد في طاعتك !

إننا لا نتميز الحكمة من التذلل والتضرع إليك كالجهلاء . فما الفرق إذاً بين الحكمة والجهل ؟

إلهي ! لا تدع نزعات الطمع تعودنا إلى الضلال وتحميد بنا عن طريق الفضيلة الحقة ! إلهي هذه آهات عجزنا ، فاهدنا سبيل الرشاد وظللنا برحمتك ونادنا إليك وقدنا إلى الإيمان ! يا كريم العفو أرجو أن تقبل طاعتي وركوعي وسجودي ! وهذا هو منتهى ما أصبو إليه من شرف . ولو كانت خطاياي كثيرة فإن كرمك أكثر من ذلك بكثير ، إنه أضعاف وألوف الرحمات والمغفرة . ولئن كانت ذنوبي متراكمة كحزم

لا تعد ولا تحصى، فإنك قادر على إحراقها جميعاً بجمرة تأوهاتى، ولو استغرقت مئات من السجلات لكي أدون فيها عصياني وأسرافي في أمري فإنك على محوها كلها بدموع عيني لتدير.

كيف يعتبر المرء كادحاً في طريق الروح إذا لم يجد في هذا الكدح شفاءً لآلامه. فليكن يا إلهي شفاءً (جامي) الألم نفسه، واجمل دواءً قلبه دوامَ احتمال الآلام في سبيلك!

## ٢- إضاءة شموع الجمال من عالم الغيب إلى مروض عالم الشهادة

كل كائن في هذا الكون ازدان بالجمال فهو والعشق معاً كطائر انطلق من عش الوحدة وحط على غصن مظاهر الكثرة والتعدد. ومن هنا كانت هيبة تائق المعشوق، ومن هنا كذلك كان نواح العاشقين الحزين على فراق الحبيب. فإن يكن ثمة ترنيمه فرح لمعشوق فهو من هنالك، وإن يكن أنين عشق لعاشق فمن هنالك أيضاً، وحين كان الكون يقبع مخبوءاً في العدم، كان هناك كائن محروم من الاستمرار، حيث كلمتي أنا وأنت ليس لهما معنى. جمال مطلق متحرر من أي قيد من قيود المظاهر، يتبدى لنفسه فقط متميزاً بنوره الخاص، وكروس جميلة في غرفة الفرح، توبها كامل لا يعيبه أبسط نوع من النقصان، ولم تعكس أية مرآة وجهها أبداً، ولم ترها عين، ولا حتى في الخيال، غنى لنفسه أغنيات رائعة عن جمال يأخذ بمجامع القلوب ولعب لعبة الحب لنفسه.

ولكن مبدأ الجمال هو أن الوجه الجميل لا يحتمل أن يبقى مخبوءاً خلف ستار، إنه غير قادر على الاعتدال، وإذا أغلقت الباب دونه فإنه سوف يتبدى من النافذة. وكما تعلم أنه إذا كانت هناك فكرة رائعة ونادرة تلوح في الفكر، فإنك تصبح سهوياً بها وتحس أن عليك إظهارها بأن تعبر عنها بالكلام أو الكتابة. ومثل هذا كان الدافع الطبيعي لظهور الجمال منذ نشأ أول مرة فيما قبل فترة الظهور. ولما

أحس الجمال السرمدى بهذا الدافع برز من ممالك القدس ليشتع في جميع الآفاق وفي جميع الأرواح. وحينما ظهر انعكاسه كان الحديث عنه على كل شفة ولسان. وحين انطلق منه شعاع ضئيل ملأ السماء والأرض بالضياء انبهت منه الملائكة، فبدأت تلو تسابيحها إلى درجة وصلت بها إلى الذهول. ومن الغائضين في البحار السماوية ارتفعت تسيبحة صارخة "سبحان الله!"

وهنا صارت كل ذرة من ذرات الكون مرآة، كل واحدة منها تعكس مظهراً من هذا الجمال الخالد والروعة الأبدية. وحين وقع جزء من هذا السطوع على الوردة جعل العندليب هائماً مجنوناً بها، وأما عطرها فقد أهب خدّ المصباح، وتراكضت مئات من الفراشات قادمات من كل حذب وصوب وأحرقت أنفسها فيه. وجعل الشمس تتقد باللهب، وترك زنايق الماء تلوح للعيان مشربئة الأعناق. وصارت ليلى مدينة له بفتنتها وجمالها، حتى إن قلب المجنون هاجه الهوى مع كل شعرة من رأسها، ومنح العذوبة لشفتي (شيرين)<sup>١</sup> اللتين أبهجتهما كلاً من برويز وفرهاد<sup>٢</sup>. ومن خلال يوسف، قمر كنعان، قهر الجمال زليخا وسيطر على روحها وغلبها على أمرها.

هذا هو الجمال الذي نرى روعته في كل مكان، وبسببه احتجب المحببون عن العيون، فحينما رأيت حجاباً، فوراءه يختفي ما هو مخفي. وهذا ما سبب كل قلب مكبل بالعشق أن يخفق. إنه حب الجمال الذي يسرع ضربات القلب ويملأ الروح نشوة وطرباً. وكل قلب عاشق، هو عاشق للجمال وحده، سواء أدركنا ذلك أم لم ندركه.

<sup>١</sup> شيرين: من شخصيات الحب في الأدب الفارسي

<sup>٢</sup> برويز وفرهاد: هما اللذان أحبا شيرين.

فلا تحاول أن تقع في خطأ فاحش من التصور بأن الجمال ينبعث من هناك وأن الحب متأصل هنا في نفوسنا، مع أن الحب والجمال ليسا في مرتبة عليا واحدة، فإذا ظهر العشق في داخلك فلأن له أصولاً في الجمال هناك. فأنت لاشيء، ولا تعدو كونك مرآة انعكس عليها الجمال. فالجمال وانعكاسه جاء معاً من ينبوع واحد، إنهما معاً الكنز والصندوق.

ولكننا، أنت وأنا، ليس لنا مهمة هنا، لأننا لا نملك سوى فكرة مفترضة. فلنصمت، مادامت القصة ليس لها نهاية، فليس ثمة لغة أو شاعر يستطيع التعبير عنها، وليس لنا بد من أن نكون ملتزمين بالعشق. فمن غيره نحن لاشيء، أجل، لاشيء على الإطلاق!

حول وجهك عن العالم إلى أم العشق، فإن عالم العشق جميل! لا أنقص الله غم العشق من قلب إنسان! ولا كان في العالم قلب بغير عشق!

إن القلب الخلي من مرض العشق ليس قلباً أبداً، والجسم المحروم من وخزات العشق ليس إلا مجرد ماء وطين، فالتقت عن هذا العالم إلى ميدان الأم العشق اللذيذة، ولا تدع قلبك يهرب من هذا العذاب! كن أسير العشق تكن طليقاً! وضع آلمه في صدرك تكن مسروراً! فما دوران هذا الفلك إلا من دوار العشق، وكيف يتأتى الجيشان العظيم للعالم إذا لم يكن هناك ضجيج عشق؟!

نعم! إذا كنت تريد أن تكون حراً، فكن أسيراً للعشق. وإذا رغبت في المسرات فاقح صدرك لمعاناته. فمن خمره العشق تأتي الحرارة والبهجة، ومن دونها لاشيء غير الكآبة والأناية الباردة. إن مجرد تذكر العشق يحبي قلب العاشق ويأتيه المجد الذي يرفع شأنه. فلو لم يرتشف الجنون خمره من هذه الكأس، فمن أين له تلك الشهرة في الدنيا وفي الآخرة؟ هناك ألوف من الرجال عاشوا موهوبين، ولكنهم

كانوا غرباء عن العشق، وقد اتهموا دون أن يتركوا وراءهم أية قصة أو أثر يخلدان أسماءهم. وقد تحاول القيام بمئات من الأمور الكثيرة، ولكن العشق وحده هو الذي يجرك من نفسك. ولذا لا تهرب أبداً من العشق - نعم ولا حتى من عشقٍ مسترٍ بصفة أرضية - لأنه إعداد لفهم الحقيقة العليا. فكيف تستطيع أن تقرأ القرآن دون أن تتعلم الأيجدية أولاً؟

لقد سمعت حكاية عن مرید ذهب إلى شيخ يسأله الهداية إلى الطريق (الصوفية). فقال له الشيخ: "إذا لم تكن قد مشيت في طريق العشق فاذهب وأحب واعشق، ثم عد إلينا بعد ذلك!". فإذا لم تعب من قذح خمر الظهور فلن تذوق طعم شفة من شراب الأسرار. فلا تسكع في مقام المظاهر، بل اقطع الجسر بسرعة إذا أردت أن تصل إلى الهدف الأسمى!

واني لأشكر الله أنه من اللحظة التي جئتُ فيها إلى هذا العالم قد كنت دائماً سعيداً باتباع طريق العشق. فحينما ولدتُ وضعت أُمِّي شفتي على صدرها وأرضعتني على العشق، مع حليبها. والآن وقد ابيض شعري وحال إلى لون هذا الحليب مازلت أحتفظ في أعماق قلبي بالطعم اللذيذ لحليب العشق. لا شيء يمكن أن يقارن بالعشق سواء في الشيخوخة أو الشباب. وكل لحظة عشق توصل إليّ قائلة: "يا جامي، لقد غدوت مسناً في العشق وربما تستمر فيه ثم تموت بهدوء في عشقك، فلا بد لك من أن تكذب أولاً رواية عن تجربة العشق، حتى تثبت لنفسك قدماً في هذا العالم. فارسم بقلمك الظرف صورة تبقى من بعدك حينما تقادر الحياة".

لقد رحبتُ بتحمدي الحب لذكائي بكل سرور. وعلى الفور بادرت بالمراهنة وبدأت بصياغة جديدة لهذا القصة القديمة الرائعة. متمنياً عون الله في أن تحمل نخلتي ثمار الحقيقة، التي أسلتهما من

حُرِّقَ العشق التي نزلت بي . وسوف أبدع عملاً شعرياً أرجو به أن يلهب خيال المدرِّكين للحقائق بظرفه ومهارته، حتى يتصاعد منهم دخان الحريق ويفزوا القبة الزرقاء ويُبكي عيون النجوم، وبذلك أكون قد أنجزت عملاً كتابياً معتبراً، فيصفق لي الجميع، حتى السموات نفسها، إعجاباً بعلمي هذا.

حينما أدركت أن في الكلام قوة إلهية، كيف لي أن أمتنع عن استخدامه؟ لقد تقدم بي العمر وأنا مشغل نفسي بهذه الحمرة، والآن سوف أجعلها شغلي الشاغل لكي أهب بعنف شيخوختي، وأنفس عن بعض الأسرار التي كانت مخبوءة داخل قلبي . سوف يكون فمي مملوءاً بكلمات مبدعة في حلاوة العسل، حينما أكتب عن جمال يوسف وحب زليخا . لقد قال تعالى في كتابة العزيز: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ ولم يكن في الوجود معشوق مثل يوسف الذي فاق جماله جمال الآخرين . وعندما نريد وصف شاب جميل له صفات مميزة فإننا نقول عنه يوسف آخر . ومن بين العشاق لم يوجد أحد مثل زليخا، التي كانت عاطفتها الجارة فريدة من نوعها . فلقد عشقت منذ طفولتها حتى كبرت سنها، أحببت في كامل سطوتها وفي فقرها المدقع . ولم تتوقف لحظة واحدة عن تكريس نفسها للعشق . لقد ولدت وعاشت وماتت - في العشق!

٣- الجيبى بغضن جمال يوسف من مرتب الغيب إلى مروض الشهادة وتريبته بماء

### عين يعقوب وهوى قلب زليخا

حسب رواية الرواة عن أصل الكون، حدثنا أصحاب الكشف الإلهي الذين يفكرون ملياً ويستخرجون اللائى من محيطات المعاني الروحية، بأن عيني آدم عليه السلام قد فتحتا على ضوء شمع جمال

يوسف في خلوة الغيب، وشاء المولى القدير أن يريه ذريته أمام عينيه، وكانوا مرتين حسب مزاياهم، الأنبياء فالأولياء فالملوك ثم الناس العاديون.

وألقى آدم عليه السلام ببصره على هذا العدد الكبير وتفحص كل مجموعة من هؤلاء الناس، واحدة تلو الأخرى. ولم يمض وقت طويل حتى لفت انتباهه وجه يوسف متبدياً كالقمر - ماذا أقول؟ - بل مثل الشمس في علوها وهيبتها وروعها. لقد برز من بين هذا الحشد الهائل شمع منير، حتى غطى جماله على جمال الآخرين فتضاءلوا وخبا نورهم كما يخبو نور النجوم أمام الشمس المشرقة.

ولما أخذ العجب آدم عليه السلام من هذا البهاء سأل ربه: يا إلهي في أية حديقة وردت هذه الشجرة؟ وأية عينين ملتعتين سوف يسمح لهما بالتحديق فيه؟ وكيف يأتي لهما أن يتمعا بهذا الحظ السعيد؟ ومن أين جاء مثل هذا الجمال وهذا الجلال؟ فسمع هاتفاً يقول: "إنه نور عينيك، وسوف يحقق السعادة لقلبك الحزين. إنه فرع من حديقة يعقوب عليه السلام ووزغال في بستان إبراهيم الخليل عليه السلام. إن جمال وجهه سوف يثير غيرة من وهبوا الحسن والجمال ويعتبر مرآة وجهك، فكافئه بشيء من خزانة ثروتك!".

فأجاب آدم عليه السلام "نعم، لقد فتحت له أبواب الكرم، ومنحته ثلثي الجمال المقدر لبني الإنسان. وبعدها تفتح قلب آدم عليه السلام بالسرور كما تفتح الوردة، ثم صار يدعو لحفيده دعوات صادقة بأن يبارك الله تعالى فيه، فكان كالعندليب الذي يغرد للوردة.

ودق طبل الوجود على يد هذه المجموعة الكبيرة المكرسة لعبادة المظاهر، وكشفت الحقيقة لبني الإنسان في كل حقبة، ونشر رجل عظيم نوره على هذا العالم. ولو أن النمط الكوني بقي ثابتاً على حاله،





























































